الرسالة

(١ كورنثوس ٤: ٩-١٦)

يا إخوةُ إنَّ اللهَ قد أبرَزنا نحنُ الرسلَ آخِري الناس كأنَّنا مجعولونَ للموت. لأنَّا قد صِرنا مشهداً للعالمِ والملائكةِ والبشر* نحنُ جهَّالٌ من أجلِ المسيحِ أمَّا أنتم فحكماءُ في المسيح. نحنُ ضُعفاءُ وأنتم أقوياءُ. أنتم مُكرَّمون ونحن مُهانون* وإلى هذه الساعة نحنُ نجوعُ ونعطَشُ ونَعْرى ونُلطَمُ ولا قرارَ لنا* ونتعَبُ عاملين. نُشتَمُ فنبارك. نُضطَهَدُ فنحتمِل* يُشنَّعُ علينا فنتضرَّع. قد صِرنا كأقذارِ العالمِ وكأوساخٍ يستخبثها الجميعُ إلى الآن* ولستُ لأُخجِلَكم أكتبُ هذا وإنَّما أعِظُكم كأولادي الأحبَّاءِ* لأنَّه ولو كانَ لكم ربوةٌ منَ المُرشدينَ في المسيحِ ليس لكم آباءٌ كثيرون* لأنّي أنا ولَدتكم في المسيحِ يسوعَ بالإنجيل* فأطلب إليكم أن تكونوا مقتدينَ بي.

رقاد والدة الاله

ترى الكنيسة الارثوذكسيَّة في العذراء مريم الأم التي حملت لكل البشريَّة الإله المتجسد الذي جاء إلى العالم ليفديه بدمه الكريم على الصليب، أي ليخلّصه من ظلام الخطيئة ويعيده إلى نور الحياة الأبدية، إلى الحياة مع الله. لذلك، تكرِّم الكنيسة العذراء مريم تكريماً عظيماً يفوق الشيروبيم والسيرافيم «يا من هي أكرم من الشيروبيم وأرفع مجداً بغير قياس من السيرافيم...»، وتهتف مع القديس يوحنا الدمشقي قائلةً: «إن البرايا بأسرها تفرح بك يا ممتلئة نعمة، محافل الملائكة وأجناس البشر. أيتها الهيكل المتقدس والفردوس الناطق، فخر البتوليَّة مريم التي منها تجسَّد الإله وصار طفلاً، وهو إلهنا قبل الدهور، لأنَّه جعل مستودعك عرشاً وجعل بطنك أرحب من السماوات. لذلك يا ممتلئة نعمة تفرح بك كلُّ البرايا وتمجِّدك».

تعيِّد الكنيسة المقدَّسة في الخامس عشر من شهر آب لرقاد سيدتنا والدة الإله الفائقة القداسة والدائمة البتوليَّة مريم، وبهذا العيد تختتم الكنيسة سنتها الطقسيَّة من ناحية الأعياد السيديَّة الكبيرة. تجدر الإشارة إلى أنَّ أول عيد سيدي تعيّد له الكنيسة هو عيد ميلاد العذراء مريم (٨ أيلول). في عيد الرقاد الشريف، نعيّد لرقاد العذراء، ولانتقالها بحسب التقليد. هذا الأمر ذكره الآباء القديسون أمثال أندراوس الكريتي ويوحنا الدمشقي وغريغوريوس بالاماس: إنَّه رقاد العذراء وانتقالها وليس موتها.

ذاقت العذراء مريم الموت طبعاً وأودعت القبر لكنَّها لم تعرف فساداً لأنَّها انتقلت إلى السماء بحسب ما ترتله الكنيسة في صلاة غروب العيد في قطع الليتين: «لقد كان لائقاً بمعايني الكلمة وخدامه، أن يعاينوا رقاد أمِّه بالجسد. إذ هو السر الأخير الكائن فيها، حتى إنَّهم لا يكونون قد شاهدوا صعود المخلّص من الأرض فقط بل وأن يشهدوا أيضاً انتقال والدته. فلذلك قد أدركوا صهيون من كل الجهات منتقلين بالقوة الإلهيَّة، وشيَّعوا التي هي أكرم من الشيروبيم فيما كانت منطلقةً إلى السماء. فنحن معهم نسجد لها بما أنَّها الشفيعة من أجل نفوسنا».

يستقي آباء الكنيسة تعليمهم عن

العدد ٣٣ / ٢٠١٧
الأحد ١٣ آب
وداع التجلّي
تذكار البار مكسيموس المعترف
اللحن الأول
إنجيل السَحَر العاشر

رقاد العذراء وانتقالها إلى السماء بالجسد من الكتاب الذي كان متداولاً لدى جماعة الغنوصيين في القرن الثالث. فهو يورد خبر رقادها وصعودها إلى السّماء بالجسد كما نعرفه اليوم. هذا الكتاب هو من جملة كتب الأبوكريفا أي الكتب المنحولة التي لم تعترف الكنيسة بقانونيتها والتي تتضمن سيرة مريم العذراء والتي أخذت عنها الكنيسة كلّ ما يتعلّق بحياة العذراء على الأرض. بدأت الكنيسة تتداول رواية رقاد العذراء في القرون الأولى بتحفّظ شديد ما بين القبول والرفض وذلك حتى القرن السادس. لكن، بسبب ظهور البدعة النسطورية، تقبّلت الكنيسة كلّ ما يختص بتمجيد العذراء وكرامتها من التراث المتوارث. قام آباء كثيرون بتثبيت هذا التراث في كتاباتهم وعظاتهم، أبرزهم القدّيس مودستيوس الأورشليمي واندراوس الكريتي. إذاً، أساس خبر رقاد العذراء هو من التقليد الشريف المتوارث.

لا يذكر الكتاب المقدس شيئًا عن رقاد والدة الإله، لكن الآباء يوردون في عظاتهم الكثير من الآيات التي تدل على رقاد العذراء وانتقالها بالجسد، نذكر منها قول داود النبي: «قم يارب إلى راحتك أنت وتابوت قدسك » (مز ١٣١: ٨). يفسّر الآباء هذه الآية بأن المسيح قد أدخل إلى السماء الجسم الذي منه وُلد ولادة زمنية. إضافة إلى قوله: «قامت الملكة عن يمينك بألبسة مزخرفة منسوجة بخيوط مذهبة» (مز ٤٤: ١٠). يرى الآباء في هذه الآية مريم العذراء موشاة بحلّة ملوكية قائمة عن يمين السيّد، أي في السّماء. كذلك يُستشهد بآية من رؤيا يوحنا تقول: «وظهرت علامةٌ في السماء: امرأة ملتحفة بالشمس وتحت قدميها القمر وعلى رأسها إكليل من اثني عشر كوكباً» (رؤ١٢: ١).

تؤمن الكنيسة بأنه لا بدّ لابن الله الذي اتخذ الطبيعة البشرية في حشا البتول، أن يُدخِلَ خادمةَ التجسدِ أمَّه إلى مجده. لقد تجسّد الله من العذراء مريم واتخذ طبيعة بشرية كاملة من دون أن يفقد شيئًا من ألوهيته، أمّا مريم العذراء، فقد صارت أمًّا للإله المتجسّد والمدعو ابن الله وابن الإنسان، لأنّه صاحب الطبيعتين الكاملتين الإلهيّة والبشريّة، فحصلت على المجد ولم تنل فساد القبر والموت. هكذا لم يستطع أي شيء أن يفصل بين الأم والابن حتى في الجسد. انتقال مريم العذراء بجسدها ونفسها في آن بعد الموت، هو نتيجةٌ لعمل الروح القدس فيها. الروح الذي حلّ عليها وأهّلها أن تصير أمًّا لابن الله، هو نفسه يكمّل عمله فيها ويحيي جسدها المائت وينقلُه إلى المجد. الروح القدس هو قدرة الله المحيية التي لا تُحدّ. بهذه القدرة كان يسوع يشفي المرضى ويُخرج الشياطين ويقيم الموتى، وبهذه القدرة أيضًا قام هو نفسه من الموت وبهذه القدرة سيقيم الأموات. أمّا مريم العذراء التي سلّمت نفسها بالكامل لعمل الروح القدس، فحصلت مباشرة عند رقادها على قيامة الجسد من دون فساد.

نرتل في هذا العيد الشريف: «الموت صار عربوناً للحياة». لقد جعلت الكنيسة هذا العيد عيداً لكل الطبيعة البشريَّة لأنَّ العذراء مريم، حواء الجديدة، أعادت تلك الطبيعة الفاسدة بفعل الخطيئة إلى هدفها الأسمى وسمحت لها بالخلاص والرجاء. يمثّل لنا رقاد والدة الإله المجد الذي يمكن أن نصير إليه إذا أثمرت النعمة فينا بحلول الروح القدس. تركز الكنيسة في هذا العيد

الإنجيل

(متى ١٧: ١٤–٢٣)

في ذلك الزمانِ دنا إلى يسوعَ إنسانٌ فجثا له وقال يا ربُّ ارحمِ ابني فإنَّهُ يُعذَّبُ في رؤوسِ الأهِلَّةِ ويتألَّم شديداً لأنَّه يقعُ كثيراً في النار وكثيراً في الماء* وقد قدَّمْتُهُ لتلاميذك فلم يستطيعوا أنْ يَشْفوهُ* فأجاب يسوع وقال: أيُّها الجيلُ غيُر المؤمنِ الأعوجُ إلى متى أكونُ معكم. حتى متى أحتمِلُكم. هلمَّ به إليَّ إلى ههنا* وانتهرهُ يسوعُ فخرجَ منهُ الشيطانُ وشُفي الغلامُ من تلكَ الساعة* حينئذٍ دنا التلاميذُ إلى يسوعَ على انفرادٍ وقالوا لماذا لم نستطِعْ نحن أنْ نُخرِجَهُ* فقال لهم يسوع لِعدمِ إيمانِكم. فإنّي الحقَّ أقولُ لكم: لو كانَ لكم إيمانٌ مثلَ حبَّةِ الخردلِ لكنتم تقولون لهذا الجبلِ انتقِلْ من ههنا إلى هناك فينتقِلُ ولا يتعذَّرُ عليكم شيءٌ* وهذا الجِنس لا يخرجُ إلاَّ بالصلاة والصوم* وإذ كانوا يتردَّدون في الجليل قال لهم يسوع إنَّ ابنَ البشر مزمعٌ أن يُسلَّمَ إلى أيدي الناس* فيقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم.

تأمل

عندما نتحدث إلى إخوتنا البشر يقصّون علينا مشكلاتهم فإننا نصغي إليهم بإمعان إن كنا نكنُّ لهم المحبة. ولسوف نشعر بالتعاطف تجاه معاناتهم وألمِهم لكوننا مخلوقات الله. نحن تعبيرٌ عن محبة الله، لكننا كثيراً ما نعتبر ذلك حِملاً ثقيلاً علينا لأننا نحن أيضاً نئوء تحت همومنا الذاتية وضيقاتِنا وضعفاتنا. نحن بحاجة لنرتاح من كل هذه الهموم، لكن الله وحده يمنحنا الراحة. إنه رافِعُ كلّ إعاقاتنا وضعفاتنا. يجب أن نتوجه إليه بالصلاة على الدوام. هذا هو مصدر تعزيتنا الوحيد. عندها سنرتاح من أثقالنا ومن أثقال إخوتنا على السواء لأننا سنكون قد حملناها كلَّها إلى الرب.

كلما زِدْنا اهتماماً بهموم قريبنا ومشكلاته تصبح همومنا ومشكلاتنا، وللحال تصبح أفكارُنا منشغلة بها.

إن أصغَينا إلى قريبنا مولين إيّاه نصفَ اهتمامنا فقط فلا شكّ بأننا سنعجز عن إعطائه جواباً أو تعزية... قد نستمع إليه من دون تركيز وندعُه يتكلم ولا نشارك في الحوار لأننا غارقون في أفكارنا. لكن على البعد الروحي للحدث الذي يلخصه الرسول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس قائلًا: «كما لبسنا صورة الترابي سنلبس أيضاً صورة السماوي» (١كو١٥: ٤٩). مهَّدت لنا العذراء برقادها الطريق إلى السماء واضعة نصب أعيننا إمكانات الطبيعة البشريَّة التي ما إن تقبل الروح القدس، تنفتح وتتدفق حياةً وقداسة.

لذلك نتوسَّل اليوم مع القديس غريغوريوس بالاماس نحو والدة الإله متضرعين وقائلين: «أعطي لشعبك بغزارةٍ ميراثَك، ورحمتك ومواهبك يا سيّدة! بدّدي الضيقات التي تكتنفنا. أنظري كم من الشدائد الداخليَّة والخارجيَّة يعترينا. حوّلي كلَّ شيء إلى الأفضل بقدرتك. هدّئي أبناء العائلة الواحدة فيما بينهم وردّي عنا الأعداء. لتكن معونتك ودواؤك شافيين لأهوائنا، مانحةً نعمتك بغزارة لنفوسنا وأجسادنا. وإن لم نسعها اجعلينا أوسع، حتى إذا كنا محفوظين بنعمتك نمجّد الحكمة الذي قبل الدهور الذي تجسَّد منك، ونمجد أباه الذي لا بدء له وروحه المحيي، الآن وإلى الدهور التي لا نهاية لها، آمين» .

الحرية في تعليم القديس مكسيموس المعترف

لقد استبان مكسيموس الإلهي، الذي خدم الله ما بين ٥٨٠ و٦٦٢، واحدًا من القدّيسين واللاهوتيّين العظماء في تاريخ الكنيسة شرقًا وغربًا. فقد كان من نخبة المثقّفين في مدينة القسطنطينيّة، وهو مؤلفٌ غزيرٌ في مواضيع لاهوتيّة، وفلسفيّة، وطقسيّة، وأحد المعترفين بالإيمان الأرثوذكسي.

نشأ في عائلة لامعة وكان محبًّا للحكمة ولاهوتيًّا بارزاً. عمل كرئيس الديوان والسكرتير الخاص للإمبراطور هيراقليوس وحفيده كونستانز. عندما باتت بدعة «المشيئة الواحدة في المسيح» غالبة في القصر الملكي، غادر القديس البلاط إلى دير في خريسوبوليس، أصبح فيما بعد رئيسًا له. عندما حاول الإمبرطور كونستانز أن يرغمه على قبول عقيدة المشيئة الواحدة، ووقْفِ الكلام والكتابة ضد هذه البدعة، لم يتمكّن من أن يثنيه عن عزمه، فاقتلع لسانه وبتر يده اليمنى، وأرسله إلى المنفى حيث حيث رقد العام ٦٦٢.

الإنسان، وفقًا للقديس مكسيموس، هو كائن حرّ. جاء إلى حيز الوجود في الحرّية، وسقط ليس من دون حرّية. هو مدعو إلى الخلاص من خلال الحرّية. سقوطه هو فعل للإرادة. الخطيئة تحصل في المقام الأوّل في الإرادة. إنها فقدان الحرّية أو بالحري تقييد للقدرة على التفكير والتعرّف على الله، بحيث يكتظّ وعي الإنسان بالصور المادّية.

الخطيئة والشر هما حركة إلى أسفل بعيدًا عن الله. الإنسان لا يعود يحوّل العالم أو الطبيعة حين يتحرّك فيهما، كونه أقيم فيهما كاهنًا ونبيًّا؛ بل ينحدر ويستغرق في الجسديات والهموم الباطلة. دعي إلى التألّه، لكنّه أصبح مثل الوحوش البُكْم، ودُعي إلى الوجود، فاختار عدم وجود. صار عقله كثيفًا، وجسده كذلك.

إلا أن حرّية الإنسان لا تتلاشى في الخطيئة، بل تضعف. هنا يكمُن وعد القيامة والعتق من سلطة الفساد والخطيئة. المسيح يحرّر، ولكن لا بدّ للإنسان من أن يقبل الخلاص من صميم نفسه، بشكل

خلاّق وبحريّة.

يؤكّد القديس مكسيموس على التمييز بين عنصرين مكوّنَين للإنسان هما الطبيعة والمشيئة. المسيح في موته وقيامته يشفي الطبيعة مرة واحدة وإلى الأبد، من دون مشاركة فعليّة من الأفراد، فيحصل إحياءٌ لسائر أبناء الجنس البشري، حتى الخطأة منهم. لكن لا بد، لكي يتحرّر الجميع، من جهاد شخصي. الجميع مدعوّون إلى هذا العتق مع المسيح وفي المسيح.

نعمة الله تحرّر الإنسان من خلال الأسرار وتُتحده بالمسيح. ترفعه فوق حيّز الطبيعة المخلوقة فيبدأ التأله فيه بالفعل. فعل النعمة ليس خارجيًّا عند الإنسان ولا هو قسري. هو يستلزم مُسبقًا حرية التصرّف وقابلية التأثّر. هو يوقظ الحرية، ويحرّك الشوق الإلهي في الإنسان. يَعتبِر القديس مكسيموس أن التآزر بين المشيئة الحرّة والنعمة أمرٌ ضروري بل أساس للنمو في المسيح. المواهب التي تُمنح في الأسرار يجب أن تصان وتُرعى، ولا تُستَعلَن في حياة الإنسان إلا من خلال انفتاحه الطوعي عليها.

الأسرار والجهاد لا يمكن فصلها في الحياة المسيحية. فإن التنازل الإلهي وصعود الإنسان إلى الله، هما لقاء واجتماع سري يتحقق في المسيح. هذا يتعلق بالحياة الشخصية لكل مسيحي. يجب أن يولد المسيح في كل نفس ويصبح «متجسّدًا» من جديد، كما يكتب القديس بولس في (غلاطية ٢:٢٠): «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيَّ». هذا لا يحصل إلا في الكنيسة جسد المسيح. في الكنيسة يستمر التجسّد وتتحقّق غايته.

لكن عندما يتنازل الله وينحدر إلينا، يجب الجهاد بحريّة من أجل اقتبال نعمة ظهوره. الجهاد الروحي هو صراع مع المشيئة، وهدفه بلوغ حالة اللاهوى. الهوى هو الإفراط في تفضيل العالم على المسيح. الشرّ نفسه، والهوى هما تقييمٌ خاطئ للأشياء، تالياً فإنّ السلوك الضار يقودنا، بعيدًا عن هدفنا الحقيقي، إلى الفراغ والعدم، فلا نعود نُدرك الحقيقة. أما أبرز أهداف الجهاد الروحي فهما التنقية والتحرّر من الأغلال الحسيّة والضعف في الإرادة.

يتحدّث القديس مكسيموس كثيرًا وبإسهاب عن المسيح والتحرّك الذي يولّده فينا سرّيًا لنعيش حياة المسيح وتأمُّل الثالوث القدوس ومعرفته. يتحقّق هذا في الكنيسة. الكنيسة تُتّحِدُ المؤمنين بالمسيح. بل المسيح نفسه يُتحد الكنيسة بنفسه ويجمع خلائقه التي تلقّت وجودها منه، إلى أن تأتي نهاية العالم حين يكون الله «كل شيء في كل شيء».

تأله الإنسان هو غاية الخلق، ومن أجله كانت الخليقة وكان كلّ ما جاء إلى حيّز الوجود. لكن هذا لا يتحقّق بعنف أو بغصب، بل يكون بالاقتبال الطوعي في خبرة الحرية والمحبة. لقد بلغ القديس مكسيموس هذا الاستنتاج من خلال عقيدةٍ دقيقة علّمها عن مشيئتين اثنتين وقوّتين إلهية وبشريّة متّحدتَين في شخص الإله الإنسان.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

إن كنا نوليه كامل اهتمامِنا فسنأخذ على عاتقنا حِملَه وحِمْلَنا على السواء.

إن كان حِملنا يفوق مقدرتنا على الاحتمال فلنتوجَّه إلى الرب مباشرة قائلين: «يا رب، إني أعجز حتى عن حَمل إعاقاتي الذاتية، والآن عليَّ أن أحمل عبءَ فلان أيضاً. لا أستطيع أن أقوم بكل هذه المسؤولية. إني أعجز عن القيام بهذا بمفردي، وبما أني لا اشعر بالرغبة بذلك فإن كل ذلك يُثقل ضميري أكثر فأكثر. إني أودّ أن أساعد قريبي، لكني لا أملك الوسيلة لذلك. يظن أقربائي بأن لا رغبة لي بالمساعدة، وهذا حِملٌ إضافي على كاهلي».

حين نصلّي إلى الرب من كل قلبنا ونحمل إليه كلَّ همومنا ومشكلاتنا ــ وأيضاً همومَ إخوتنا البشر ومشكلاتهم ــ فإنه يأخذ منا هذا العبء ونشعر على الفور بأننا أكثر خفَّة. وبعد أن كنا نتخبَّط في شِباك أفكارنا نجد أنفسَنا في استرخاء وسلام لأننا قد وضعنا كلَّ شيء بين يدي الرب.

الشيخ تداوس الصربي